معهد الميراث النبوي

اسْمُ الْمَادَّةِ

الْعَقِيدَةُ

الدَّرْسُ الرَّابِعُ مِنْ:

شَرْحِ (الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ وَأَدِلَّتُهَا)

مُؤَلِّفُ الْمَتْنِ:

الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ/مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ–

اسْمُ الشَّارِحِ:

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الدُّكْتُور/أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بَازمُول –حَفِظَهُ اللهُ–

تَحْتَ إِشْرَافِ:

فَرِيقِ عَمَلِ مَعْهَدِ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أَلَا وَإِنَّ أَصْدَقَ الْكَلاَمِ كَلاَمُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ تَوَقَّفْنَا عِنْدَ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا ...».

وَقَبْلَ الْبَدْءِ فِي الدَّرْسِ، أَعْتَذِرُ عَنِ الْغِيَابِ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي وَذَلِكَ لِظَرْفٍ طَارِئٍ حَصَلَ، فَقَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– سَأُحَاوِلُ أَنْ أُعَوِّضَ هَذَا الْغِيَابَ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي بِلِقَاءَاتٍ أُخْرَى بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى حَسْبَ مَا يُيَسِّرُهُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– لَنَا.

وَأَيْضًا قَبْلَ أَنْ نَبْدَأَ فِي الدَّرْسِ نُرَاجِعُ بِإِذْنِ اللهِ –تَعَالَى– مَا سَبَقَ أَنْ دَرَسْنَاهُ

فَأَوَّلًا: مِمَّا سَبَقَتْ دِرَاسَتُهُ الْمَسَائِلُ الْأَرْبَعُ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَهَا وَهِيَ:

الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.

وَالْعَمَلُ بِهِ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى الَّذِي يَحْصُلُ مِنَ الدَّعْوَةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْمَسَائِلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وَنَبَّهْنَا عَلَى مَسْأَلَةِ أَنَّ الْعِلْمَ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–.

ثُمَّ انْتَقَلْنَا إِلَى الْمَسَائِلِ الثَّلَاثِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– وَهِيَ:

مَسْأَلَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فِي كَوْنِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فِي أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

ثُمَّ مَسْأَلَةُ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَأَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ.

وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَسْأَلَةِ الْمُوَالَاةِ أُنَبِّهُ عَلَى سُؤَالٍ طُرِحَ: مَحَبَّةُ الزَّوْجَةِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوِ الْيَهُودِيَّةِ الْكِتَابِيَّةِ هَلْ يَدْخُلُ هَذَا فِي الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ؟! فَهَلْ يَدْخُلُ هَذَا فِي الْوَلَاءِ الْمُحَرَّمِ؟!

الْجَوَابُ: لَا، لِأَنَّ مَحَبَّتَهَا مِنْ مَحَبَّةِ أُمُورِ الدُّنْيَا؛ أَنَا عِنْدَمَا أَتَعَامَلُ مَعَ إِنْسَانٍ مَثَلاً نَصْرَانِيٍّ فِي التِّجَارَةِ فَأَنَا أُحِبُّ الْمَالَ وَأُحِبُّ أَنْ أَرْبَحَ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ وَهَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ الْمُوَالَاةِ لِأُمُورِ الدِّينِ أَوِ الْمَحَبَّةِ مَعَ كُفْرِهِ، إِنَّمَا هَذِهِ مَحَبَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِأُمُورِ الدُّنْيَا.

وَمِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَحَبَّةُ الشَّخْصِ لِقَرَابَتِهِ كَأَنْ يَكُونَ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قَالَ فِي حَالِ الْوَالِدِ أَوِ الْوَالِدَةِ الْكَافِرَيْنِ سَوَاءٌ كِلَاهُمَا أَوْ أَحَدُهُمَا قَالَ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

أَيْ: عَامِلْهُمَا بِالْمُعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُعَامَلَةَ الطَّيِّبَةَ تَتَنَافَى مَعَ إِظْهَارِ الْبُغْضِ الْمُطْلَقِ لَهُمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ نَوْعِ إِحْسَانٍ وَمِنَ الْإِحْسَانِ الْمَحَبَّةُ لِأَجْلِ هَذِهِ الْقَرَابَةِ، فَالْوَالِدُ وَالْوَالِدَةُ هُمَا سَبَبَا وُجُودِ هَذَا الْوَلَدِ أَوِ الْبِنْتِ بَعْدَ أَمْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا سَبَقَ تَقْرِيرُهُ فِي أَنْوَاعِ الْوَلَاءِ الثَّلَاثَةِ.

فَهَذَا النَّوْعُ مِنْ مَحَبَّةِ الزَّوْجَةِ أَوْ مَحَبَّةِ الْقَرَابَاتِ هُوَ دَاخِلٌ فِي الْأَمْرِ الثَّالِثِ؛ الْوَلَاءُ أَوِ الْمَحَبَّةُ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ بِكُفْرِيَّةٍ وَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ الْمُحَرَّمِ، مَعَ مُلاَحَظَةِ مَا سَبَقَ أَنَّنِي وَإِنْ تَزَوَّجْتُ نَصْرَانِيَّةً أَوْ كَانَ أَحَدُ قَرَابَاتِي كَالْوَالِدَيْنِ مَثَلاً غَيْرَ مُسْلِمٍ: مَثَلاً كَأَنْ يَكُونَ نَصْرَانِيًّا أَوْ غَيْرَهُ أَنَّنِي أُبْغِضُ هَذَا الدِّينَ، أُبْغِضُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، أُبْغِضُ هَذَا الْأَمْرَ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَا مَانِعَ مِنْ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ السَّابِقَةِ، فَآمُلُ أَنْ تَكُونَ الصُّورَةُ قَدِ اتَّضَحَتْ لَنَا وَأَنْ لَا يَلْتَبِسَ الْأَمْرُ.

بَعْدَ ذَلِكَ، بَيَّنَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: مَا هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ–؟!

بَيَّنَ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ هِيَ أَنْ نَعْبُدَ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الْعِبَادَةِ وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ بِعَدَمِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَبَيَّنَ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وَمَرَّ مَعَنَا أَنَّ {يَعْبُدُونِ} بِمَعْنَى: يُوَحِّدُونِ.

ثُمَّ بَيَّنَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمَا الْمُسْلِمُ، مَا هُمَا؟!

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

ثُمَّ بَيَّنَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مَا هِيَ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ هِيَ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَمَعْرِفَةُ الْعَبْدِ دِينَهُ، وَمَعْرِفَةُ الْعَبْدِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ثُمَّ بَيَّنَ كَيْفَ يَعْرِفُ الْعَبْدُ رَبَّهُ، أَوْ كَيْفَ عَرَفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ فِيمَا لَوْ سُئِلَ، أَوْ فِيمَا إِذَا جَاءَهُ الشَّيْطَانُ وَحَاوَلَ أَنْ يُلَبِّسَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُجِيبُهُ بِهَذَا الْجَوَابِ بِأَنْ يُجِيبَ مَنْ يَسْأَلُهُ بِأَنَّهُ عَرَفَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِمَخْلُوقَاتِهِ وَآيَاتِهِ.

وَأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ -رَبَّانَا بِنِعَمِهِ وَهُوَ رَبِّي وَرَبُّ الْعَالَمِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَإِذَا كَانَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الرَّبُّ وَهُوَ الْمَعْبُودُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فَإِنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَشَجَرٍ وَحَجَرٍ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَكُلِّ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الْخَالِقُ لَهَا؛ فَالْخَالِقُ لَهَا هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ بَشَرٌ أَمْ جِنٌّ أَمْ حَجَرٌ أَمْ بَقَرٌ أَمْ غَيْرُ ذَلِكَ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ.

عِيسَى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– بَشَرٌ مَخْلُوقٌ لَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، مُحَمَّدٌ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –بَشَرٌ مَخْلُوقٌ لَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– مَلَكٌ مَخْلُوقٌ لَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فَكَيْفَ يُعْبَدُ فُلَانٌ أَوْ فُلَانٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ تُدَّعَى لَهُ الْوَلَايَةُ أَوْ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ –؟!

لِذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ أَنْوَاعَ الْعِبَادَةِ وَأَنْ يَهْتَمَّ بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، حَتَّى لَا يَصْرِفَ شَيْئًا مِنْهَا لِغَيْرِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

الْمَتْنُ

قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِثْلَ: الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَمِنْهَا: الدُّعَاءُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ وَالْخُشُوعُ وَالْخَشْيَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالاِسْتِعَانَةُ وَالاِسْتِعَاذَةُ وَالاِسْتِغَاثَةُ وَالذَّبْحُ وَالنَّذْرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فَهَذِهِ أَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ وَمِنْ أَعْظَمِهَا الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ.

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾».

الشَّرْحُ

وَالْإِسْلَامُ كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الطَّوِيلِ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِينَ سَأَلَهُ: مَا الْإِسْلَامُ؟!

قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ».

فَهَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَهَذِهِ هِيَ أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ الشَّهَادَتَانِ مَعَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ.

قَالَ: «وَالْإِيمَانُ» أَيْ: وَمِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– بِهَا الْإِيمَانُ، وَفَسَّرَهَا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِجِبْرِيلَ حِينَ سَأَلَهُ: مَا الْإِيمَانُ؟!

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

فَهَذِهِ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ السِّتَّةُ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، إِيمَانٌ بِالْمَلَائِكَةِ، إِيمَانٌ بِالْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ، الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ، الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قَالَ: «وَالْإِحْسَانُ».

فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْإِحْسَانِ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَرَاتِبُ الدِّينِ: الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ.

وَالْإِسْلَامُ أَوْسَعُ دَائِرَةً مِنَ الْإِيمَانِ، فَأَهْلُ الْإِسْلَامِ كُثُرٌ، وَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فَهُمْ أَقَلُّ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يَأْتُونَ بِالْإِسْلَامِ وَيَزْدَادُونَ بِالطَّاعَةِ فَيَزْدَادُ إِيمَانُهُمْ، فَيَنْتَقِلُونَ إِلَى مَرْحَلَةِ الْإِيمَانِ.

وَأَهْلُ الْإِحْسَانِ هُمْ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَهُمْ أَقَلُّ، فَهُمْ مَعَ الطَّاعَةِ وَمَعَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَّا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- عِبَادَةَ مَنْ يَرَى أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَمَنْ يَعْلَمُ وَيُوقِنُ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَى اللهَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهُ يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اللهَ يَرَاهُ.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَجْوِبَةِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الْبَدِيعَةِ حِينَ سَأَلَهُ رَجُلٌ وَقَالَ لَهُ: يَا إِمَامُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَهَلْ لِي ذَلِكَ؟!

قَالَ: نَعَمْ، اعْصِ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، لَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ وَلَكِنْ بِشَرْطٍ.

قَالَ: مَا هُوَ؟!

قَالَ: اعْصِهِ حَيْثُ لَا يَرَاكَ.

فَتَعَجَّبَ السَّائِلُ! قَالَ: كَيْفَ؟! لَا يُوجَدُ مَكَانٌ أَكُونُ فِيهِ إِلَّا وَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَرَانِي وَيَعْلَمُ بِحَالِي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فَقَالَ: أَمَا تَسْتَحِي أَنْ يَرَاكَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- وَتَعْصِيهِ؟!

أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَعْصِيَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنْتَ فِي مُلْكِهِ؟!

أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَعْصِيَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنْت بِهَذَا الْحَالِ؟!

فَإِذَنْ؛ حَالُ الْإِحْسَانِ حَالٌ عَالِيَةٌ رَاقِيَةٌ جِدًّا، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَسْتَشْعِرُ وَيَسْتَحْضِرُ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَرَاهُ وَيَعْلَمُ بِحَالِهِ بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفِي نَفْسُهُ، فَيُرَاقِبُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَيُخْلِصُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لِذَا كَانَ أَهْلُهُ أَقَلَّ.

وَمِنْ هُنَا لَمَّا قَالَتِ الْأَعْرَابُ: آمَنَّا. قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ يَعْنِي: أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَلَمْ تَصِلُوا إِلَى مَرْحَلَةِ الْإِيمَانِ.

فَهَذِهِ أَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ، الْإِسْلَامُ بِأَرْكَانِهِ الْخَمْسِ، وَالْإِيمَانُ بِأَرْكَانِهِ السِّتِّ، وَالْإِحْسَانُ بِاسْتِحْضَارِ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَرَى وَيَعْلَمُ بِحَالِ الْعَبْدِ مَهْمَا كَانَ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَقَدَّمَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِأَنَّهَا مِنَ الْمَكَانَةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْأَهَمِّيَّةِ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ، وَالنَّاسُ تَتَفَاضَلُ فِي قُلُوبِهَا وَفِي أَعْمَالِهَا وَفِي عِبَادَتِهَا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

ثُمَّ قَالَ: «وَمِنْهَا»؛ أَيْ: وَمِنَ الْعِبَادَةِ، الْعِبَادَةُ أَنْوَاعٌ لَيْسَتْ نَوْعًا وَاحِدًا، بَلْ هِيَ أَنْوَاعٌ، كَمَا جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَهُنَا أُنَبِّهُ سَرِيعًا، أُنَبِّهُ نَفْسِي وَأُنَبِّهُ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِمَّنْ يَسْتَمِعُوا لِهَذَا الْكَلَامِ، أُنَبِّهُهُمْ عَلَى مَسْأَلَةٍ مُهِمَّةٍ وَخَطِيرَةٍ جِدًّا وَهِيَ أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ عِبَادَةً وَقُرْبَةً إِلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَّا بِشَرْطَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلاَصُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، يَكُونُ الْعَمَلُ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، فَلاَ تُشْرِكْ مَعَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَحَدًا فِي هَذَا الْعَمَلِ، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي أَيْضًا يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَى وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى، فَلاَ تُقْبَلُ الْعِبَادَةُ أَيْضًا إِلَّا بِهِ هُوَ: مُتَابَعَةُ سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهَدْيِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ الْكِرَامُ.

فَلاَ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِيَ بِعِبَادَةٍ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ وَيَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُهَا، مَا الدَّلِيلُ؟!

الدَّلِيلُ قَوْلُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» أَيْ: مَرْدُودٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وَالْبِدَعُ وَالْمُحْدَثَاتُ مِمَّا نَهَانَا عَنْهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمَةِ أَنْ إِذَا عَمِلَتْ عَمَلاً أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ وَارِدٌ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ هَدْيِهِ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فَهَذَا جَانِبٌ مُهِمٌّ، لِأَنَّنَا نَجِدُ مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ هَدَانَا اللهُ وَإِيَّاهُمْ لِلصَّوَابِ قَدْ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ مِنْ بَابِ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ فَلاَ تُقْبَلُ مِنْهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَمِنْهَا» أَيْ: وَمِنَ الْعِبَادَةِ، «الدُّعَاءُ».

هَلْ حَصَرَهَا كُلَّهَا؟!

الْجَوَابُ: لَا.

لِأَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهَا: «وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا».

السُّؤَالُ هُنَا: لِمَاذَا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ؟!

ذَكَرَ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ لِأُمُورٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُ وَقَعَ الْخَلَلُ فِيهَا مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَرَفُوا الدُّعَاءَ لِغَيْرِ اللهِ، وَخَافُوا غَيْرَ اللهِ، وَرَجَوْا غَيْرَ اللهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى غَيْرِ اللهِ، إِلَى آخِرِهِ.

فَنَبَّهَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ لِوُقُوعِ الْخَطَأِ فِيهَا، وَهَذَا دَأْبُ الْعَالِمِ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَخْطَاءِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ وَيُنَبِّهُ عَلَيْهَا وَلَيْسَ هَذَا مِنْ تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّشْوِيشِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ عَدَمِ الْأُلْفَةِ وَعَدَمِ الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّنَا إِذَا اجْتَمَعْنَا نَجْتَمِعُ عَلَى الْحَقِّ وَنَجْتَمِعُ فِي اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَلَا بُدَّ مِنَ النَّصِيحَةِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْبَيَانِ وَلَا بُدَّ مِنْ إِظْهَارِ الْحَقِّ وَدَمْغِ الْبَاطِلِ.

فَإِذَنْ؛ لَا بُدَّ لِلْعَالِمِ أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى الْأَخْطَاءِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: أَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.

وَأَيْضًا مِنْ فَوَائِدِ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ: أَنَّ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ غَالِبًا إِذَا صَحَّتْ فَإِنَّهَا تَقُودُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الدُّعَاءَ، وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– عَظِيمَةٌ، وَأَغْلَبُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ تَرْجِعُ لِلدُّعَاءِ، فَمَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ دَعَا غَيْرَ اللهِ، وَمَنْ طَافَ فِي قَبْرٍ إِنَّمَا طَافَ لِيَدْعُوَهُ، لِذَلِكَ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ الدُّعَاءُ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ.

شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– ذَكَرَ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ، وَعَدَّدَهَا هُنَا وَسَيَذْكُرُ أَدِلَّتَهَا دَلِيلاً دَلِيلاً بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى فِيمَا سَيَأْتِي، وَسَيَأْتِي مَعَنَا تَعْرِيفُهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا.

فَإِذَنْ؛ «وَمِنْهَا»؛ أَيْ: وَمِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.

أَيْ: مِنْ أَنْوَاعِهَا: «الدُّعَاءُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ وَالْخُشُوعُ وَالْخَشْيَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالاِسْتِعَانَةُ وَالاِسْتِعَاذَةُ وَالاِسْتِغَاثَةُ وَالذَّبْحُ وَالنَّذْرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا».

كُلُّهَا لِمَنْ؟!

«كُلُّهَا لِلَّهِ»، تُصْرَفُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَتَكُونُ لِلَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ-.

قَالَ الشَّيْخُ: «كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى».

«كُلُّهَا»؛ أَيْ: كُلُّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، لَا يَجُوزُ أَنْ نَصْرِفَ أَيَّ نَوْعٍ مِنْهَا لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

مَا الدَّلِيلُ؟!

قَالَ: «الدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾».

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الْمَسَاجِدَ هُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُرَادُ بِهَا أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا الْمَسَاجِدُ الْأَمَاكِنُ الَّتِي يُصَلَّى فِيهَا، وَإِمَّا أَعْضَاءُ السُّجُودِ.

فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أَيْ: لَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، تُصْرَفُ لَهُ، وَتُفْعَلُ لَهُ، لَا لِغَيْرِهِ، فَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَصْرِفَهَا لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، وَإِنَّمَا أَتَمَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَنَهَى عَنْ شِرْكِهِ، فَقَوْلُهُ ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

يَعْنِي: قَوْلٌ عَامٌّ، يَعْنِي: لَا تَدْعُوا أَيَّ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ، لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلاً وَلَا وَلِيًّا صَالِحًا وَلَا حَجَرًا وَلَا شَجَرًا وَلَا قَمَرًا وَلَا شَمْسًا وَلَا غَيْرَهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

﴿فَلاَ تَدْعُوا﴾ نَهْيٌ، اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَنْهَانَا أَنْ نَدْعُوَ مَعَ اللهِ أَحَدًا.

لِمَاذَا؟!

لِأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِجَمِيعِ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الَّذِي إِذَا صَرَفْنَا إِلَيْهِ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ نَكُونُ قَدْ صَرَفْنَاهَا فِي وَجْهِهَا الشَّرْعِيِّ وَنَكُونُ قَدْ أَتَيْنَا بِمَا أُمِرْنَا بِهِ.

لِمَاذَا؟!

لِأَنَّهُ كَمَا سَبَقَ هُوَ الْخَالِقُ هُوَ الرَّازِقُ هُوَ الرَّبُّ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ.

طَيِّبٌ، مَنْ صَرَفَ أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ لِغَيْرِ اللهِ؟!

قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ».

يَعْنِي إِذَا صَرَفْنَا أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، لَوْ دَعَوْنَا غَيْرَ اللهِ، أَوْ تَوَكَّلْنَا عَلَى غَيْرِ اللهِ كَمَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ، وَخَشِينَا أَوْ ذَبَحْنَا أَوْ نَذَرْنَا لِغَيْرِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فَمَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

هُنَا أُنَبِّهُ عَلَى مَسْأَلَةٍ يُنَبِّهُ عَلَيْهَا الْعُلَمَاءُ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– قَوْلٌ عَامٌّ.

مَا مَعْنَى قَوْلٌ عَامٌّ؟!

الْقَوْلُ الْعَامُّ: يَعْنِي لَا نَحْكُمُ بِهِ عَلَى الْأَشْخَاصِ مُبَاشَرَةً، وَإِنَّمَا نَقُولُ: دُعَاءُ غَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

طَيِّبٌ، هَذَا قَوْلٌ عَامٌّ؛ حُكْمٌ عَامٌّ. هَذَا الْقَوْلُ الْعَامُّ لَا نُنَزِّلُهُ عَلَى الْمُعَيَّنِ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَانْتِفَاءِ الْمَوَانِعِ.

فَلَوْ وَجَدْنَا رَجُلاً يَدْعُو يَقُولُ: (يَا حُسَيْنُ) أَوْ يَقُولُ (يَا عَبْدَ الْقَادِرِ)، نَقُولُ: يَا أَخِي اتَّقِ اللهَ، هَذَا دُعَاءُ غَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لَا يَجُوزُ، وَهُوَ شِرْكٌ، فَقَدْ يَقُولُ وَهَذَا غَالِبًا؛ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَنَّهُ شِرْكٌ، ظَنَنْتُ أَنَّهُ جَائِزٌ.

فَنَقُولُ لَهُ: لَا هَذَا خَطَأٌ وَهُوَ شِرْكٌ، فَاتَّقِ اللهَ وَاتْرُكْهُ.

فَلاَ نَأْتِي نَقُولُ لَهُ: أَنْتَ دَعَوْتَ الْحُسَيْنَ، أَوْ أَنْتَ دَعَوْتَ عَبْدَ الْقَادِرِ الْجَيْلاَنِيَّ أَوْ أَنْتَ دَعَوْتَ فُلاَنًا، أَنْتَ كَافِرٌ، أَنْتَ مُشْرِكٌ، يَا عَدُوَّ اللهِ وَنَذْبَحُهُ.

لَا، هَذَا خَطَأٌ، هَذَا عَمَلُ الْحَدَّادِيَّةِ.

الْحَدَّادِيَّةُ: طَائِفَةٌ تُسَمَّى (الْحَدَّادِيَّةَ) تُنْسَبُ إِلَى رَجُلٍ اسْمُهُ مَحْمُودٌ الْحَدَّادُ، مِصْرِيٌّ، مُعَاصِرٌ مَوْجُودٌ، هَذَا الرَّجُلُ تَكْفِيرِيٌّ وَدَخَلَ بَيْنَ صُفُوفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَرَوَّجَ لِبِدَعِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ، وَبَيَّنُوا ضَلاَلَهُ، هَذَا الرَّجُلُ تَكْفِيرِيٌّ، وَالْحَدَّادِيُّونَ تَكْفِيرِيُّونَ وَلَهُمْ عَلاَقَةٌ وَثِيقَةٌ بِالدَّوَاعِشِ، وَلَهُمْ عَلاَقَةٌ وَثِيقَةٌ بِالْخَوَارِجِ وَكَذَا هَذَا مَذْهَبُ الْخَوَارِجِ وَمَذْهَبُ الدَّوَاعِشِ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّهُمْ يُكَفِّرُونَ النَّاسَ جُزَافًا، وَيُكَفِّرُونَ النَّاسَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ.

فَإِذَنْ؛ يَنْبَغِي أَنْ نَتَنَبَّهَ لِمِثْلِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ هَذِهِ، وَأَنْ لَا نَفْعَلَ وَأَنْ لَا نَقَعَ فِي خَطِيئَةِ أُولَئِكَ الْمُبْتَدِعَةِ مِنَ الْحَدَّادِيَّةِ وَالدَّوَاعِشِ وَغَيْرِهِمْ.

فَهُنَا نَقُولُ: مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، حُكْمٌ عَامٌّ، عِنْدَمَا نَأْتِي لِإِنْسَانٍ مُسْلِمٍ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ نُعَلِّمُهُ أَوَّلًا.

لَوْ سَمِعْنَا مُسْلِمًا يَقُولُ مَثَلاً: (وَالنَّبِيِّ) مَا نَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كَافِرٌ يَا مُشْرِكُ يَا عَدُوَّ اللهِ وَنَذْبَحُهُ أَوْ نُكَفِّرُهُ.

لَا؛ بَلْ نُعْلِمُهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، طَيِّبٌ (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ) نَقُولُ: نَعَمْ حُكْمٌ عَامٌّ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ جَاهِلاً، وَالْجَهْلُ مَانِعٌ، قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ غَيْرَ قَاصِدٍ لِهَذَا الْمَعْنَى فَوَقَعَ بِسَبَبِ سُوءِ الْفَهْمِ ظَنَّهُ جَائِزٌ، أَوْ لِأَنَّ هُنَاكَ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ مَنْ أَجَازُوا لَهُ هَذَا الْأَمْرَ.

وَهُنَا أَيْضًا نُنَبِّهُ عَلَى قَضِيَّةٍ مُهِمَّةٍ، أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي دِينِ اللهِ فَهُوَ عَالِمٌ يُتَّبَعُ، بَلْ إِنَّمَا يُتَّبَعُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ هُمْ عَلَى السُّنَّةِ، الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ أَخَذُوا بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ جِدًّا، النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ».

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ الطَّوَافَ حَوْلَ الْقُبُورِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ دُعَاءَ غَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ تِلْكُمُ الشِّرْكِيَّاتِ وَالْكُفْرِيَّاتِ مِنَ الاِسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ وَالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْكُلِّيَّةِ بِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ هَذِهِ الْأُمُورَ هَلْ أَخَذُوا هَذِهِ الْأُمُورَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ؟!

لَا، فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَاءَ لِيُحَارِبَ هَذِهِ الشِّرْكِيَّاتِ وَيُحَارِبَ تِلْكُمُ الْكُفْرِيَّاتِ وَالضَّلَالَاتِ، وَيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيُنْقِذَ النَّاسَ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ.

وَكَمَا سَبَقَ مَعَنَا قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

فَإِذَنْ -بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ- لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ هَذَا؛ فَلَا تَغْتَرُّوا -بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ- بِمَنْ يَظْهَرُ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ أَوْ يَكُونُ عِنْدَكُمْ فِي بَلَدِكُمْ وَيَدْعُو أَوْ يُجَوِّزُ هَذِهِ الْأُمُورَ الشِّرْكِيَّةَ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَلِمَ الْحَقَّ وَجَبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ.

فَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يُتَّبَعُونَ إِنَّمَا هُمْ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ، إِنَّمَا هُمْ عُلَمَاءُ الْحَقِّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

فَإِذَنْ؛ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

مُشْرِكٌ؛ لِأَنَّهُ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ بِصَرْفِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَمَّا كَافِرٌ؛ فَلأَنَّهُ بِشِرْكِهِ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ.

وَكُلُّ مُشْرِكٍ كَافِرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ كَافِرٍ مُشْرِكًا.

لِأَنَّ الْكَافِرَ قَدْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَلَا يُشْرِكُ مَعَهُ غَيْرَهُ.

فَمِنْ هُنَا الشَّيْخُ قَالَ: «فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ» كَافِرٌ أَيْ خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، وَمُشْرِكٌ أَيْ شِرْكًا أَكْبَرَ إِنْ وَقَعَ فِيهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْبُدَ وَلَا يَدْعُوَ وَلَا يَسْتَغِيثَ وَلَا يَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَى اللهِ، وَأَنَّ مَنْ عَبَدَ مَلَكًا مُقَرَّبًا أَوْ نَبِيًّا مُرْسَلاً أَوْ دَعَاهُ أَوِ اسْتَغَاثَ بِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ».

فَكَيْفَ بِدُعَاءِ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ، فَكَيْفَ بِدُعَاءِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

هَلِ الْوَلِيُّ الْفُلانِيُّ أَعْلَى مِنَ الْمَلَكِ؟!

هَلِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَعْلَى مِنَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟!

هَلِ الْوَلِيُّ أَعْلَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؟!

لَا، الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ لَا يَجُوزُ دُعَاؤُهُمْ، الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْمَلائِكَةُ لَا يَرْضَوْنَ بِدُعَائِهِمْ، وَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ جَاءَتْ لِدُعَاءِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ شِرْكٌ وَكُفْرٌ بِاللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

قَالَ الشَّيْخُ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾».

الدَّلِيلُ عَلَى مَاذَا؟!

الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مَنْ صَرَفَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَهَذَا بَدِيعٌ مِنَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–.

مَا هُوَ الْبَدِيعُ؟!

الْبَدِيعُ أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ: «مَنْ صَرَفَ شَيْئًا»؛ يَعْنِي: مَنْ أَتَى بِالْخَوْفِ وَالتَّوَكُّلِ وَالرَّغْبَةِ وَالْخَشْيَةِ وَالِاسْتِغَاثَةِ وَأَتَى بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ وَلَكِنْ صَرَفَ نَوْعًا وَاحِدًا فَقَطْ وَهُوَ الدُّعَاءُ لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ.

يَعْنِي بَعْضُ النَّاسِ يُلَبِّسُ يَقُولُ: يَعْنِي يَا أَخِي، الْمُشْرِكُ الَّذِي يَدْعُو غَيْرَ اللهِ وَيَطُوفُ حَوْلَ الْقَبْرِ وَيَذْبَحُ وَكَذَا، وَأَمَّا بِمُجَرَّدِ أَنْ نَدْعُوَ غَيْرَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ الْأَوْلِيَاءِ، هَذَا لَيْسَ بِشِرْكٍ لَيْسَ بِكُفْرٍ، أَنْتَ الْآنَ أَحْبَطْتَ كُلَّ عَمَلِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ.

نَقُولُ: نَعَمْ، أَمَا عَلِمْتَ قَوْلَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾؟! فَإِنَّ مَنْ وَقَعَ فِي شِرْكٍ وَاحِدٍ، شِرْكٍ أَكْبَرَ أَبْطَلَ جَمِيعَ عَمَلِهِ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾. فَقَالَ: {مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ}.

فَالشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَشَارَ إِلَى مَسْأَلَةٍ مُهِمَّةٍ وَهِيَ أَنَّ صَرْفَ نَوْعٍ وَاحِدٍ لِغَيْرِ اللهِ هُوَ شِرْكٌ مُخْرِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، هَذَا كَحُكْمٍ عَامٍّ.

فَيَنْبَغِي أَنْ نَتَنَبَّهَ لِهَذَا الْأَمْرِ وَأَنْ لَا يَلْتَبِسَ عَلَيْنَا هَذَا الْأَمْرُ.

ثُمَّ قَالَ: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾».

قَوْلُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾؛ أَيْ: كُلُّ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَهًا آخَرَ.

وَنَلْحَظُ هُنَا أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- ذَكَرَ الدُّعَاءَ؛ فَمَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَهَذَا كَافِرٌ، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وَهَذَا يُؤَكِّدُ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ وَهُوَ أَنَّ صَرْفَ نَوْعٍ وَاحِدٍ فَقَطْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ هُوَ شِرْكٌ.

طَيِّبٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ ذَكَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- الدُّعَاءَ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ كُلُّ عِبَادَةٍ تُصْرَفُ لِغَيْرِ اللهِ، لِمَاذَا؟!

لِأَنَّ الْعِلَّةَ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الشِّرْكُ، وَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ خَافَ الْخَوْفَ الَّذِي يَكُونُ لِلَّهِ مِنْ غَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ مِمَّا يَكُونُ لِلَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ.

فَإِذَنْ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الْمُرَادُ أَنَّ مَنْ يَصْرِفُ أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَقَدْ كَفَرَ.

طَيِّبٌ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أَيْ: لَا تُوجَدُ عِنْدَهُ حُجَّةٌ وَلَا دَلِيلَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ الْإِنْسَانُ لَوْ عِنْدَهُ حُجَّةٌ أَوْ دَلِيلٌ عَلَى الشِّرْكِ يُشْرِكُ؟! لَا؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ حَرَّمَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

لِمَاذَا؟!

اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يَقُولُ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لَا حُجَّةَ لَهُ وَلَا دَلِيلَ؛ يَقُولُ هَذَا تَأْكِيدًا عَلَى ضَلالِهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ هَذَا الْعَمَلَ وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ هَذَا الْعَمَلَ وَهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ بِهِ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ هَذَا الْعَمَلَ وَقَدْ جَاءَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَى خِلافِهِ.

إِذَنْ لَا دَلِيلَ عِنْدَهُ، بَلِ الدَّلِيلُ عَلَى خِلافِهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ تَقْرِيعِ حَالِهِمْ، وَمِنْ زِيَادَةِ بَيَانِ سُوءِ ضَلالِهِمْ وَبَيَانِ أَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ فَلاَ دَلِيلَ عِنْدَهُمْ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ.

فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ مَا عُقُوبَتُهُ؟!

قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

أَيْ: عِقَابُهُ وَعَذَابُهُ سَيَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُلُودِهِ فِي النَّارِ، لِأَنَّ اللهَ كَمَا سَبَقَ مَعَنَا فِي آيَاتٍ وَأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ تَوَعَّدَ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ لَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ، وَلَكِنْ قَدْ يَقَعُ الْعَبْدُ فِي الشِّرْكِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ غَيْرُ وَاقِعٍ فِيهِ.

لِمَاذَا لَا يَقَعُ فِيهِ؟!

سَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ فِي رِسَالَةِ كَشْفِ الشُّبُهَاتِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ فِيهِ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَلَا يَعْلَمُ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِسَبَبِ تَلْبِيسَاتِ عُلَمَاءِ السُّوءِ، الَّذِينَ فَسَّرُوا لَهُمُ التَّوْحِيدَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ الصَّحِيحِ.

وَالْعَجَبُ، كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَقُولُونَ: الْعَجَبُ مِنْ مُسْلِمٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى التَّوْحِيدِ فَيَقَعُ فِي الشِّرْكِ، وَالْكُفَّارُ - كُفَّارُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ- يَعْرِفُونَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، يَعْرِفُونَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَيْ: لَا تَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، فَكَانُوا يَرْفُضُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾.

يَعْنِي فَيَقُولُونَ: أَنَّ تَرْكَ آلِهَتِنَا بِقَوْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَبَعْضُ الْمُسْلِمِينَ -هَدَانَا اللهُ وَإِيَّاهُمْ إِلَى الصَّوَابِ- يَقُولُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَهُوَ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ، يَقُولُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَهُوَ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ، يَقَعُ فِي الشِّرْكِ.

لِمَاذَا؟!

لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ الْحَقِيقِيِّ، وَلِذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ هُنَا قَدَّمَ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ لِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الْأَمْرِ وَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى

الْحَنِيفِيَّةِ أَنْ نَعْبُدَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْ لَا نُشْرِكَ بِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

إِذَنْ؛ قَالَ ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

أَيْ: لَا يَكْسِبُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ هُمْ فِي خَسَارَةٍ دَائِمَةٍ، فَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَالْكَافِرُونَ لَا يَغْتَرُّ بِهِمُ الْمُؤْمِنُ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا وَلَكِنْ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُونَ فِي النَّارِ خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ فِيهَا، إِنْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ وَمَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ.

فَالْمُسْلِمُ يَدْعُو اللهَ وَيُوَحِّدُ اللهَ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، كَمَا سَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

هُنَا كَمَا سَبَقَ الشَّيْخُ يَقُولُ: «وَالدَّلِيلُ»، دَائِمًا يَبْنِي كَلَامَهُ عَلَى الدَّلِيلِ وَالْحُجَّةِ.

وَهَذَا تَعْوِيدٌ لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَتَعْوِيدٌ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْبَلَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَأَنْ يَقْبَلَ الْكَلَامَ بِدَلِيلِهِ، فَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ بِلَا دَلِيلٍ لَا يَقْبَلُهُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ فِيهِ.

إِنَّمَا يُعَوِّدُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ طُلاَّبَ الْعِلْمِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَيُبْعِدُهُمْ عَنِ التَّعَصُّبِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ إِكْسَابِ الْمَشَايِخِ وَالْعُلَمَاءِ الْعِصْمَةَ وَأَنَّهُمْ لَهُمْ أَنْ يُشَرِّعُوا لِلنَّاسِ، وَلَهُمْ أَنْ يُحَلِّلُوا وَيُحَرِّمُوا، إِنَّمَا الْعُلَمَاءُ وَالْمَشَايِخُ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، يُبَيِّنُوا الْحَقَّ، وَأَمَّا مَنْ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ وَدَعَا إِلَى بَاطِلٍ فَهُوَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَيْسَ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

ثُمَّ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- شَرَعَ فِي بَيَانِ أَدِلَّةِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْعِبَادَاتِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ.

فَذَكَرَ دَلِيلَ الدُّعَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعًا نَوْعًا مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَدِلَّتَهَا، فَقَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ».

هُنَا نُنَبِّهُ عَلَى أَمْرٍ أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ بِلَفْظِ الدُّعَاءِ هُوَ الْعِبَادَةُ، أَمَّا الْحَدِيثُ بِلَفْظِ «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» فَقَدْ ضَعَّفَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَمِنْهُ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

بِهَذَا اللَّفْظِ «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» فَهَذَا ضَعِيفٌ، وَأَنَّ لَفْظَ «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» هُوَ الَّذِي صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَهُنَا قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ، هَلْ أَنْتَ الْآنَ تُخَطِّئُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ، نَقُولُ: لَا، نَحْنُ لَا نُعْطِي أَيَّ عَالِمٍ، كَائِنًا مَنْ كَانَ لَا نُعْطِيهِ صِفَةَ الْعِصْمَةِ، فَكُلٌّ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُرَدُّ إِلَّا النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَالْعِصْمَةُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَفِيمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ– يَرُدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، يَرُدُّونَ طَلَبًا لِلْحَقِّ وَلِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَيَرُدُّونَ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ، فَشَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– رُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ فَأَوْرَدَهُ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ بِلَفْظِ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ».

مَا مَعْنَى: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»؟!

يَعْنِي الدُّعَاءُ هُوَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ مِنْ أَسَاسِيَّاتِ الْعِبَادَاتِ، وَأَنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– يَحْصُلُ بِدُعَاءِ غَيْرِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– بِدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، إِذَنْ؛ «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ».

فَبَعْضُ النَّاسِ تَقُولُ لَهُ: لَا تَدْعُ فُلَانًا وَفُلَانًا فَأَنْتَ تَعْبُدُهُمْ.

فَيَقُولُ: لَا أَنَا مَا أَعْبُدُهُمْ، أَنَا عِنْدَمَا أَدْعُوهُمْ أُعَظِّمُهُمْ وَأَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُلَبُّوا طَلَبَاتِي أَوْ أَنْ يَصْرِفُوا عَنِّي السُّوءَ.

فَنَقُولُ: هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، وَهَذَا الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ كُفَّارُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ، كَانُوا يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، فَكَيْفَ تَقُولُ: الدُّعَاءَ لَيْسَ عِبَادَةً؟! بَلِ الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ.

طَيِّبٌ: مَا الدَّلِيلُ أَيْضًا؟!

الدَّلِيلُ قَوْلُ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فَاللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوَهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– فَقَالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ أَيِ الَّذِي رَبَّانَا بِنِعَمِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– فَخَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَأَوْجَدَنَا مِنَ الْعَدَمِ، يَعْنِي يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ وَسَمِعَ الْأَدِلَّةَ أَنْ يَتَلَمَّسَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي.

فَاللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– عِنْدَمَا يَقُولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ يَتَأَمَّلُ الْمُسْلِمُ فِي وَصْفِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– فِي ذِكْرِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– بِأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ، الَّذِي رَبَّانَا بِنِعَمِهِ فَيُنْعِمُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– عَلَيْنَا بِالنِّعَمِ لَيْلَ نَهَارَ وَفِي كُلِّ حِينٍ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

وَمَعَ ذَلِكَ نَدْعُو غَيْرَهُ، لَا؛ بَلْ نَدْعُوهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

فَمَنْ كَانَتْ لَهُ طَلَبَاتٌ، مَنْ كَانَتْ لَهُ رَغَبَاتٌ، مَنْ كَانَتْ لَهُ أُمُورٌ يَرْجُوهَا فَلْيَسْأَلْهَا مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَإِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَدْعُوهُ.

فَقَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أَيْ يُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِي، فَلاَ يَدْعُونَنِي اسْتِكْبَارًا وَإِعْرَاضًا، وَهُنَا نَلْحَظُ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَصَفَ وَسَمَّى الدُّعَاءَ عِبَادَةً.

فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أَيْ: عَنْ دُعَائِي وَعَنْ أَنْ يَصْرِفُوا الْعِبَادَةَ لِي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَيْ: حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ، فَيُعَذَّبُونَ بِالنَّارِ بِلَهِيبِهَا، وَأَيْضًا يُهَانُونَ عُقُوبَةً لَهُمْ، فَهَذَا دَلِيلُ الدُّعَاءِ.

وَالدُّعَاءُ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ الدُّعَاءُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ أَوْ لِأَنَّ مَنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ يَطْلُبُ قَضَاءَ حَوَائِجِهِ وَيَسْتَغِيثُ وَيَتَوَجَّهُ حِينَ يُشْرِكُ؛ بِغَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الدُّعَاءُ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَكَانَ الدُّعَاءُ مِنْ أَكْثَرِ الشِّرْكِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ النَّاسُ، وَمِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي يَلِجُ فِيهَا الشَّيْطَانُ لِإِضْلاَلِ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمَرْءَ يَضْعُفُ عِنْدَ حَاجَتِهِ، فَيُرِيدُ قَضَاءَهَا، وَيُرِيدُ إِيقَاعَهَا، فَيَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ وَيُخَيِّلُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ: لَوْ سَأَلْتَ فُلاَنًا! لَوْ دَعَوْتَ فُلاَنًا! فَإِنَّ النَّاسَ تَدْعُو فُلاَنًا وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ فَادْعُهُ.

فَإِنْ كَانَ جَاهِلاً لَا يَعْرِفُ قَدْرَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَلَا يُعَظِّمُ اللهَ فِي قَلْبِهِ وَيُعَظِّمُ الْمَخْلُوقِينَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ فَإِنَّهُ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَالْعَجَبُ أَنَّ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَبِيَدِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، وَأَنَّهُ لَوْ أَعْطَى النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ لِآخِرِهِمْ أَعْطَاهُمْ كُلَّهُمْ حَوَائِجَهُمْ مَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْءٌ.

فَكَيْفَ يَتَوَجَّهُ الْعَبْدُ لِغَيْرِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–؟!

وَكَيْفَ يَدْعُو الْعَبْدُ غَيْرَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–؟!

فَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنَ الانْحِرَافِ وَمِنْ إِضْلاَلِ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– وَأَنْ يَسْأَلَ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَهُنَا نُنَبِّهُ عَلَى أُمُورٍ فِي الدُّعَاءِ:

أَوَّلًا: يَنْبَغِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ وَأَنْ يُلِحَّ فِي الدُّعَاءِ وَأَنْ لَا يَسْتَبْطِئَ الْإِجَابَةَ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– ثُمَّ يَقُولُونَ: لَمْ يَسْتَجِبْ لَنَا، فَيَذْهَبُونَ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ كَالدُّعَاءِ لِغَيْرِ اللهِ أَوِ الذَّهَابِ لِلسَّحَرَةِ أَوِ لِلْكُهَّانِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَهَذَا خَطَأٌ.

وَإِنَّمَا أَنْتَ يَا عَبْدَ اللهِ عَلَيْكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنْ تُطَيِّبَ مَطْعَمَكَ وَمَشْرَبَكَ وَمَلْبَسَكَ وَأَنْ تَسْلُكَ السَّبِيلَ الشَّرْعِيَّ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنْ تُخْلِصَ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنْ تَدْعُوَ وَأَنْتَ مُوقِنٌ بِالْإِجَابَةِ وَتَعْلَمَ أَنَّ اللهَ بِيَدِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا، أَمَّا بَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَدْعُو اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَهُوَ سَاهٍ لَاهٍ غَافِلٌ ثُمَّ يُقَالُ: لَا يُسْتَجَابُ لِي، يَدْعُو اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وَهُوَ يَأْكُلُ الْحَرَامَ وَمَلْبَسُهُ الْحَرَامُ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!

وَأَيْضًا عَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ أَوْقَاتَ الْإِجَابَةِ، الْأَزْمِنَةَ؛ عِنْدَ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَأَيْضًا يُرَاعِي الْأَمْكِنَةَ الَّتِي جَاءَتْ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ مُرَاعَاتُهَا وَأَيْضًا كَدُعَاءِ الْوَالِدَيْنِ. فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُرَاعِيَ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي بَابِ الدُّعَاءِ.

ثُمَّ قَالَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾».

الْخَوْفُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ.

مَا هُوَ الْخَوْفُ؟!

الْخَوْفُ مَعْرُوفٌ، وَذَكَرُوا فِي تَعْرِيفِهِ بِأَنَّهُ تَأَلُّمُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ بِسَبَبِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَالْخَوْفُ قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا وَقَدْ يَكُونُ مَذْمُومًا.

فَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُكَ عَنِ الْوُقُوعِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، كَمَا ذَكَرَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فِي صِفَاتِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَخَافُونَهُ –سُبْحَانَهُ وتَعَالَى–، فَهَذَا خَوْفٌ مَحْمُودٌ، مَمْدُوحٌ أَنْ يَمْنَعَكَ الْخَوْفُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْخَوْفَ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ:

فَمِنْهُ: خَوْفُ السِّرِّ. مَا هُوَ خَوْفُ السِّرِّ؟!

خَوْفُ السِّرِّ مَعْنَاهُ أَنْ يَخَافَ الْعَبْدُ مِنْ غَيْرِ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– كَوَثَنٍ أَوْ وَلِيٍّ صَالِحٍ أَوْ مِنْ مَيِّتٍ فِي قَبْرِهِ يَخَافُ مِنْهُ كَخَوْفِهِ مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

فَبَعْضُ النَّاسِ مَثَلاً لَا يَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ أَوْ لَا يَفْعَلُ أَمْرًا، نَقُولُ: لِمَاذَا؟!

فَيَقُولُ: أَخَافُ مِنْ سَيِّدِي فُلاَنٍ أَنْ يُعَاقِبَنِي إِذَا فَعَلْتُهُ.

فَهَذَا سَاوَى بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فِي الْخَوْفِ، فَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ، وَسُمِّيَ خَوْفَ السِّرِّ لِأَنَّهُ يَخَافُ فِي سَرِّهِ فِي نَفْسِهِ، يَظُنُّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ بِحَالِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الْخَوْفِ، مَا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ بِقَوْلِهِمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتْرُكُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ خَوْفًا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ الْجَوْزِيَّة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَمِنْ كَيْدِ عَدُوِّ اللهِ -أَيِ: الشَّيْطَانِ- أَنْ يُخَوِّفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جُنْدِهِ وَأَوْلِيَائِهِمْ لِئَلاَّ يُجَاهِدُوهُمْ وَلَا يَأْمُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَتَخْوِيفِهِ وَنَهَانَا عَنْ أَنْ نَخَافَهُ. فَهَذَا الْخَوْفُ مُحَرَّمٌ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي يَمْنَعُ كَمَالَ الْإِيمَانِ وَكَمَالَ التَّوْحِيدِ.

قَالَ فِي «فَتْحِ الْمَجِيدِ»: «فَهَذَا حَرَامٌ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ الْمُنَافِي لِكَمَالِ التَّوْحِيدِ».

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْخَوْفُ الطَّبِيعِيُّ: يَعْنِي كَخَوْفِ الْإِنْسَانِ مَثَلاً مِنَ الْأَسَدِ أَوْ خَوْفِهِ مِنَ النَّارِ أَوْ خَوْفِهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَهَذَا لَا يُلاَمُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ. كَمَا وَصَفَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- نَبِيَّ اللهِ مُوسَى -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

فَإِذَنْ؛ هَذِهِ أَنْوَاعُ الْخَوْفِ الثَّلاَثَةُ خَوْفٌ هُوَ مِنَ الشِّرْكِ، وَخَوْفٌ يُنَافِي كَمَالَ التَّوْحِيدِ مُحَرَّمٌ، وَخَوْفٌ طَبِيعِيٌّ.

فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يُخَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَخَافُوا. أَنْ لَا يَخَافُوا مِمَّنْ؟! أَنْ لَا يَخَافُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَخَافُونِ﴾ أَيْ خَافُوا اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ، ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِهِ وَعَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِيَدِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى-.

لِذَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ وَأَنْ يُوقِنَ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِيَدِهِ الْأُمُورُ، فَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ.

وَلَكِنْ هُنَا نُنَبِّهُ عَلَى أَمْرٍ وَهُوَ: أَنْ تَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ، لَا يَأْتِينَا إِنْسَانٌ يَقُولُ: أَنَا مَا أَخَافُ مِنْ أَحَدٍ وَأَفْعَلُ مَا فِي رَأْسِي وَأَنَا يَعْنِي لَا أَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. فَيُكَفِّرُ النَّاسَ وَيَقْتُلُهُمْ وَيَقُولُ: أَنَا لَا أَخَافُ، لَا هَذَا لَيْسَ خَوْفًا شَرْعِيًّا، هَذَا خَوْفٌ شَيْطَانِيٌّ؛ هَذَا أَنْتَ تُخَوِّفُ النَّاسَ وَتُؤْذِيهِمْ.

إِنَّمَا الْخَوْفُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا سَبَقَ أَنْ تَخَافَ مِنَ الْأَسَدِ أَوِ السَّبُعِ.

وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنْ غَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَوْ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ خَافَهُمْ كَخَوْفٍ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَهَذَا شِرْكٌ.

وَإِنْ تَرَكَ مَا وَجَبَ لَهُ خَوْفًا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ وَلَا عُذْرَ لَهُ يَمْنَعُهُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَهَذَا مُحَرَّمٌ.

وَلَكِنْ أَنْ يَظُنَّ الْعَبْدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَخَافَ فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا خِلاَفُ الشَّرْعِ، إِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَخَافَ وَأَنْ يَلْتَزِمَ بِالشَّرْعِ فِيمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الدَّلِيلُ.

وَلِذَلِكَ نَجِدُ وَنَسْمَعُ كَثِيرًا مِنْ كَلِمَاتِ هَؤُلَاءِ الدَّوَاعِشِ أَوْ تَنْظِيمِ الْقَاعِدَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ دُعَاةِ السُّوءِ عِنْدَمَا يُلَبِّسُونَ عَلَى الْعَامَّةِ وَيُرِيدُونَ مِنْهُمُ الْخُرُوجَ عَلَى الْحُكَّامِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: لَا تَخَافُوهُمْ. خَافُوا اللهَ. لَا تَخَافُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. افْعَلُوا كَذَا.

نَقُولُ: يَا أَخِي، اتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، الْخَوْفُ الَّذِي الْآنَ تَذُمُّ النَّاسَ عَلَيْهِ هُوَ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى جَوْرِ الْحُكَّامِ وَعَدَمَ الْخُرُوجِ عَلَى الْحُكَّامِ وَسُؤَالَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ– أَنْ يُفَرِّجَ الْهَمَّ وَأَنْ يُصْلِحَهُمْ هُوَ السُّنَّةُ.

فَكَيْفَ تَجْعَلُ السُّنَّةَ أَنَّهَا خَوْفٌ، فَالصَّحَابَةُ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ– فِي مَكَّةَ هَلْ قَتَلُوا الْمُشْرِكِينَ بِهَدْمٍ عَلَيْهِمْ، أَوْ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ غِيلَةً، أَوْ أَنْ يَنْحَرُوهُمْ هَكَذَا؟!

لَا؛ إِنَّمَا صَبَرُوا حَتَّى أُمِرُوا بِالْجِهَادِ، يَنْبَغِي أَنْ لَا يَلْتَبِسَ عَلَيْنَا الْأَمْرُ، نَعَمْ، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ بِمَا شَرَعَ اللهُ، لَا بِمَا شَرَعَ الشَّيْطَانُ وَأَوْلِيَاؤُهُ.

نَعَمْ، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ إِذَا حَقَّقْنَا السُّنَّةَ وَحَقَّقْنَا عِبَادَةَ اللهِ وَتَوَكَّلْنَا عَلَى اللهِ وَخِفْنَا مِنَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

أَمَّا هَذَا الْخَوْفُ الْمَنْفِيُّ الَّذِي يَزْعُمُهُ هَؤُلَاءِ فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ خَوْفٌ بَاطِلٌ شَيْطَانِيٌّ يُلَبَّسُ بِهِ عَلَى الْعَوَامِّ.

أَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلاَثَةِ الَّتِي أَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَنْفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ.

وَأُحِبُّ أَنْ أُنَبِّهَ عَلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَعْهَدِ «مَعْهَدِ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ» وَهُوَ أَنَّنَا فِي هَذَا الْمَعْهَدِ بِفَضْلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- نَسِيرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُنَا، عُلَمَاءُ السُّنَّةِ، عُلَمَاءُ الْحَقِّ، فَنَدْعُو لِلتَّوْحِيدِ، وَنَدْعُو إِلَى السُّنَّةِ وَنُحَارِبُ الشِّرْكَ وَنُحَارِبُ الْبِدْعَةَ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا نُخَالِفُ هَذِهِ الْأُمُورَ أَبَدًا، وَمَنْ يَطْعَنُ فِي هَذَا الْمَعْهَدِ أَوْ يُحَذِّرُ مِنْهُ فَهُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

إِمَّا رَجُلٌ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ لَا تُعْجِبُهُ إِقَامَةُ التَّوْحِيدِ وَلَا تُعْجِبُهُ مُحَارَبَةُ الشِّرْكِ وَلَا يُرِيدُ هَذِهِ الْأُمُورَ، يُرِيدُ النَّاسَ أَنْ يَبْقَوْا عَلَى ضَلاَلِهِمْ، فَلاَ شَكَّ أَنَّ الدُّرُوسَ الَّتِي فِي هَذَا الْمَعْهَدِ سَتَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ، سَتَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ، وَسَتَهْدِي -بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى- سَتَهْدِي بِمَعْنَى سَتُرْشِدُ وَتَدُلُّ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلاً آخَرَ؛ رَجُلٌ جَاهِلٌ أَوْ مُتَعَصِّبٌ، أَوْ رَجُلٌ مُتَهَوِّرٌ لَا يَعْرِفُ مَكَانَةً لِلتَّوْحِيدِ، وَيُحَارِبُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَيُحَارِبُ أَهْلَ الْحَقِّ.

فَأَنَا أَقُولُ لِهَؤُلَاءِ جَمِيعًا: مَنْ يُحَذِّرُ مِنَ الْمَعْهَدِ إِنْ كَانَ رَجُلاً صَادِقًا فَلْيَأْتِ بِالدَّلِيلِ. أَنَا عِنْدَمَا أُحَذِّرُ مِنَ الشِّرْكِ، أَوْ أُحَذِّرُ مِنَ الْبِدْعَةِ؛ عِنْدَنَا أَدِلَّةٌ، أَوْ نُحَذِّرُ مِنْ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ؛ عِنْدَنَا الْأَدِلَّةُ، فَمَنْ حَذَّرَ مِنَ السَّلَفِيِّينَ أَوْ حَذَّرَ مِنَ الْمَعَاهِدِ السَّلَفِيَّةِ بِلاَ حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ؛ فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًى، وَأَنَّهُ إِلَى الْحَمَاقَةِ وَإِلَى السَّفَهِ أَقْرَبُ مِنَ الْعِلْمِ وَسِيمَاتِ طَالِبِ الْعِلْمِ.

لِمَاذَا؟!

لِأَنَّكَ أَنْتَ الْآنَ تُحَارِبُ دَعْوَةً إِلَى التَّوْحِيدِ، تُحَارِبُ دَعْوَةً إِلَى السُّنَّةِ، فَبِاللَّهِ عَلَيْكُمْ قُولُوا لِي وَأَجِيبُونِي بِكُلِّ صَرَاحَةٍ: هَلْ مَنْ يُحَذِّرُ مِنْ دَعْوَةٍ كَهَذِهِ لَهُ عَقْلٌ؟! لَهُ تَقْوَى مِنَ اللهِ –عَزَّ وَجَلَّ–؟!

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا يَكُونُ لِصَاحِبِ هَوًى أَوْ جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ التَّوْحِيدَ وَلَا يَرْفَعُ لَهُ رَأْسًا، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

فَهَؤُلَاءِ نَقُولُ لَهُمْ: اتَّقُوا اللهَ –عَزَّ وَجَلَّ– وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ.

وَنَقُولُ لَهُمْ أَيْضًا: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فَمَنْ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا الْكَلاَمِ بِلاَ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ؛ كَلاَمُهُ مَرْدُودٌ عَلَى وَجْهِهِ، كَمَا هُوَ مَنْصُوصُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ.

فَاللَّهَ أَسْأَلُ -عَزَّ وَجَلَّ فِي عُلاَهُ- أَنْ يَرْزُقَنِي وَإِيَّاكُمُ الْإِخْلاَصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يَرْزُقَ هَذَا الْمَعْهَدَ الْقَبُولَ وَالتَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ وَأَنْ يَنْفَعَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا يَذْكُرُ لِي أَصْحَابُ الْإِدَارَةِ -جَزَاهُمُ اللهُ خَيْرًا- أَنَّ الْإِخْوَةَ الْمُشَارِكِينَ وَالْأَخَوَاتِ الْمُشَارِكَاتِ فِي هَذَا الْمَعْهَدِ، يَعْنِي اللَّهُمَّ بَارِكْ وَزِدْ فِي نَفْعِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، هُمْ مُتَعَطِّشُونَ لِهَذَا التَّوْحِيدِ وَمُتَعَطِّشُونَ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ.

وَاللَّهِ لَا أُزَكِّي نَفْسِي؛ وَلَكِنْ أَنَا طَالِبُ عِلْمٍ وَأَسِيرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُنَا وَأَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ، مَا عِنْدِي شَيْءٌ زَائِدٌ، وَإِنَّمَا عِنْدِي مَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْحَقِّ، فَأَنَا عَلَى هَذَا الْحَقِّ.

وَلَوْ ضَلَلْتُ أَوِ انْحَرَفْتُ عَنِ الْحَقِّ؛ فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ أَنْ يَتْرُكُوا مَنْ ضَلَّ وَانْحَرَفَ عَنِ الْحَقِّ، أَسْأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَرْزُقَنِي وَإِيَّاكُمُ الْإِخْلاَصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.